دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل
ملاحظات حول المنهج و النظرية

د./ يوسف مختار الأمين*

إن الأبحاث المتعلقة بفترة ما قبل التاريخ في قطري وادي النيل ، مصر و السودان ، تعرضت لظروف و عوامل مختلفة و متشابهة في آن واحد . فمنها على سبيل المثال ، اهتمامات الآثاريين و الاستكشافيين الأجانب الذين وفدوا المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . و منها أيضاً ثاء المنطقة الحضاري في الفترات التاريخية متمثلاً في الآثار المعمارية و الفنون الرائعة لمصر الفرعونية . لقد كان لهذه العوامل مع غيرها تأثيرات متفاوتة أدت إلي نتائج و تجارب علمية يمكن تقصيها و تحليلها . يحاول الباحث ، في هذه الورقة تتبع تاريخ البحث الأثري الخاص بفترة ما قبل التاريخ في وادي النيل منذ بداياته الفعلية في أوائل القرن الماضي و رصد الخصائص المنهجية و الفكرية للأعمال الأساسية التي أنجزت ، و محاولة معرفة منابعها و أصولها باعتبار أنها شكلت ملامح البحث الأثري في المنطقة لفترة طويلة لاحقة . و يسعى الباحث أيضاً ، إلي رصد أسباب تأخر دراسات ما قبل التاريخ و قلة الاهتمام بها حتى وقت قريب مما أضعف معرفتنا بطبيعة التطور الثقافي في وادي النيل خلال تلك الفترة المهمة من التاريخ الإنساني .

لقد حدث تطور مهم و أساسي في أبحاث ما قبل التاريخ خلال و بعد حملة إنقاذ آثار النوبة عندما تقرر بناء خزان أسوان (١٩٥٩-١٩٦٥) و هي تعد نقطة مفارقة في تاريخ الأثري في وادي النيل . و جاء إلي المنطقة عشرات البعثات العلمية الأجنبية و أجرت البحوث الميدانية و كان لفترة ما قبل التاريخ فيها النصيب المقدر . و قد كانت نتائج هذه الأعمال مذهلة و مؤثرة في المجتمع العلمي من ناحية تقديره للدور الحضاري لوادي النيل في تلك الفترة . و من جهة أخري أحدثت تلك النتائج العلمية تغيراً ملحوظاً في وتيرة الأعمال الميدانية الجديدة خارج بلاد النوبة . و مما لاشك فيه ظهور تيارات منهجية و نظرية تميز هذه الأعمال الجديدة ، و لها بطبيعة الحال ، من الصفات ما هو إيجابي و منها ما يستدعي التقويم .

من خلال رصد هذه التجارب يحاول الباحث تحديد الأطر المنهجية و الفكرية الشائعة اليوم في دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل و الصعوبات التي تواجهها ومن ثم يقترح خطوات عملية من المأمول أن تساعد في نقل هذه الدراسات إلي أوضاع ومستويات أفضل من المعرفة الأكاديمية .

---

* أستاذ مشارك ــ قسم الآثار والمتاحف ــ جامعة الملك سعود .